تخييل التاريخ الإسلامي في " رواية السابع عشر من رمضان " لجرجي زيدان

أ.د. علي محمد ياسين

كوثر شاكر هلال المسعودي

جامعة كربلاء – كلية العلوم الإسلامية – العراق

Imagining Islamic History in Jurji Zaydan's "The Seventeenth of Ramadan"

Professor: Ali Muhammad Yassin

Kawthar Shaker Hilal Al-Masoudi

University of Karbala / College of Islamic Sciences, Iraq

ملخص البحث

يعدّ التاريخ رافدًا من الروافد الأساسية التي نهل منها الكتّاب واستعانوا بها في إنتاج عدد من الروايات والأعمال الأدبية التي تستلهم الماضي وتستدعيه لأغراض متعددة . وهذا ما يحرك البحث باتخاذ رواية (السابع عشر من رمضان) للكاتب (جرجي زيدان) ميدانًا لتطبيق المقولة المتقدمة.

وهي مقولة أثارت خلافًا كبيرًا بين المهتمين بهذا اللون الأدبي، فمنهم من يرى أن إعادة كتابة التاريخ أدبيًا قد تسهم في توجيه الرأي العام بطريقة مغايرة للمألوف قد يهدف عبرها الكاتب في أعماله إلى إظهار نظرته الذاتية لأحداث تاريخية معينة لا يكون متفقًا مع المفهوم السائد عنها. ومنهم من لم يعد الرواية مرجعاً موثوقا للمعلومات التاريخية، لكنهم عدّوها مدخلاً للتوسع والتعمق أكثر في الحقبة التاريخية المعينة.

ومما توصل له البحث أن الرواية لا تعد وثيقة من وثائق التاريخ، وشاهداً صادقاً من شهود العصر، لأن الرواية لا تنقل التاريخ حرفيًا بل إنها عمل فني له شروطه وأدواته التي يعبر بوساطتها الروائي عن آرائه وذاته في إطار أدبي خالص، ووجهة نظر فنية خالصة.

الكلمات المفتاحية: الرواية التاريخية، جرجي زيدان المرجع، التاريخ

Abstract

History is one of the primary sources from which writers have drawn and utilized in producing a number of novels and literary works that draw inspiration from the past and evoke it for various purposes. This is what drives this research, taking the novel «The Seventeenth of Ramadan» by Jurji Zaydan as a field for applying the aforementioned statement. This statement has sparked considerable controversy among those interested in this literary genre. Some believe that rewriting history in literature may contribute to directing public opinion in a manner that differs from the norm, through which the writer may aim, in his works, to express his own view of certain historical events that do not agree with the prevailing concept. Others no longer consider the novel a reliable source of historical information, but consider it a gateway to further expansion and exploration of a particular historical period. The research has shown that the novel is not considered a document of history, nor a true witness of the era, because the novel does not convey history literally, but rather it is an artistic work with its own conditions and tools through which the novelist expresses his opinions and his self in a purely literary framework and a purely artistic point of view.

المبحث الأول: في العلاقة بين الفني والتاريخي

علاقة الرواية بالتاريخ هي علاقة مرتبطة بالواقع والأخبار والقصة، وهي علاقة قوية وضعيفة في الوقت نفسه، وتتميز بالتقارب والبعد والتناقض والتقاطع و بمقدار ما تحتوي الرواية على تفاصيل الأحداث والحقائق والشخصيات، فإنها تحاول بطريقة أو أخرى مناقضتها والتمرد عليها وكشف المسكوت عنه. فالرواية نفسها تمثل نتاج السياق التاريخي للتحولات في المجتمع والكون، و تمثل نوعاً من الصراع الخفي لحيازة سلطة المتخيل وفضاء الكلام، وامتلاك مفاتيح الذاكرة.[1] و قد نشأ جدل كبير حول علاقة الرواية بالتاريخ، أو تعامل الرواية مع أحداث معينة في التاريخ! وهل يتحول الروائي إلى شاهد عيان يستحضر الماضي بشكله الجامد و بديهياته الجاهزة؟

إن للتاريخ قوانينَ و أعرافًا أدبية لا ينبغي العبث بها، لكن عندما نتحدث عن الرواية التاريخية، فإننا لا نشير بالضرورة إلى تلك القوانين والأعراف! بل إننا نمارس نوعاً من الحرية الأدبية التي تسمح للكاتب بنشر شخصيته داخل النص، حتى لو كان في فضاءات الماضي ضمن الأطر المعروفة، حتى لو ترك التاريخ الحقيقي للنص المكتوب[2].

ويرى أصحاب النزعة التاريخية أن التاريخ والرواية مترابطان ترابطاً عضوياً. وتلك هي الصورة التي كانت الرواية عليها لدى بلزاك مثلاً ومن أشهر أعماله " الأب غوريو، ١٨٣٥"؛ لكن الرواية الجديدة، ومعها النقد الجديد، ترفض هذه الأطروحة، وتأبى أن تربط نفسها بالتاريخ. لكن هل الرواية قادرة حقًا، على الخروج من جلد التاريخ، والتمرد على الزمن، في الوقت الذي لا تزيد في سلوكها على كتابة التاريخ، ولكن بشكل آخر؛ ربما أجمل وأصدق؟ خذ لذلك مثلا الشخصيات، والأحداث، والأخبار، والأزمان، كلها تحيل على التاريخ؛ وكلها تستقي من أحداث المجتمع وعلاقات الناس في المجتمع بعضهم ببعض، في الوقت نفسه. فكيف، إذن، يمكن رفض التاريخ تحت عقدة الجدة والحداثة، وما له صلة بهما؟.[3]

وأدى تحول التاريخ إلى علم له أسانيده التي تضبطه، وتبين أصوله، إلى جعله مكوناً من مكونات المعرفة، كما أن انحسار أساس المادة التاريخية بالوثيقة، وبما يطرحه المؤرخ من أسئلة في التحقيق التاريخي أسهم في خلق فهم جديد للتاريخ، ومن ثم في جعله رافداً من روافد الرؤية الإبداعية للرواية الحديثة، وقد أسهمت عقلنة الأحداث التاريخية التي تسعى إلى تفسير الحدث، وإنتاج معرفة خاصة به في فهم التاريخ فهماً جديداً، وجعل الرواية تاريخاً. وبذلك فإنه بدلاً من أن يشكل تاريخنا العربي مجموعة من الأحداث، هي في نهاية المطاف، أفعال أولي الأمر من أصحاب السلطة، وبدلاً من أن تستند هذه الأحداث إلى حركة السرد الإخباري الذي له طرقه في التثبت من صحته، صار التاريخ واقعاً مادياً له قوانينه الموضوعية التي تؤسس لفهم جديد له بوصفه علماً قائماً بحد ذاته، وهذا الالتقاء بين الرواية والتاريخ جعل الرواية تاريخاً عبرت عنه.(٤)

وقد ذهب كثيرٌ من الدارسين إلى أن الرواية هي كتابة التاريخ غير الرسمي أو التاريخ المنسي، فهي التي تتغلغل في تفاصيل ينساها ذلك التاريخ الذي ينشغل بتدوين الأحداث الكبيرة و الأسماء العظيمة، وينسى تداعيات تلك الأحداث على الأرض والبشر الضحايا، الذين يعيشون في الظل بعيدًا عن شموس قيادة الحدث، كما أنه يدون حياة تلك الشخصيات المرمية على هامش الحياة والتاريخ و أعمالها، وما كان لنا أن نعرفهم لولا الرواية. وهذا ما أكده" كارلوس فونتيس" حين قال: " أعتقد أن الرواية تمثل الآن تعويضاً للتاريخ، إنها تقول ما يمتنع التاريخ عن قوله... نحن كتاب أميركا اللاتينية نعيد كتابة التاريخ مزورًا وصامتًا: إننا أتينا من أسبانيا، هذه التي انقطعت عن الثقافة العربية وعن اليهودية، أتينا من الثقافات المهزومة التي تعرضت إلى المجازر والإبادة في أثناء الغزو الأسباني، أتينا من ثقافة الهنود الحمر، ومن ثقافة العبيد... هذا كله يصنع فراغاً، أو ثغرات تاريخية، وصمتاً تاريخياً يحاول الشاعر أو الروائي الأمريكي اللّاتيني المعاصر ملأه، نعم إنني قادر على أن أملأ بصوتي فراغ أربعة

قرون أو ما يزيد، وهذا ما يقوم به الشعراء الكبار... ولكننا نحاوله في الرواية أيضاً، كما نحاوله بأدوات أخرى ".[٥]

ولا ننسى أن المؤرخين كانوا يتعاملون مع التاريخ على أنه نوع من الأدب، ويؤكد قاسم عبده قاسم ذلك عندما يقول: "التاريخ والرواية تفاضل أم تكامل " إن العلاقة بين التاريخ والرواية هي علاقة تكامل واعتماد متبادل، فالرواية هي وثيقة للمؤرخ الذي يريد أن يفهم مجتمعًا في حقبة معينة، والرواية التي لم تكتب بقصد أن تكون تاريخاً تظل من أهم المصادر التاريخية لمعرفة النظام القيمي والأخلاقي، والعادات والتقاليد والمشاعر و الأحاسيس ورؤية الناس لدورهم وعلاقتهم بالآخرين داخل مجتمعهم وخارجه. فضلاً عن أنواع الملابس والطعام ورأيهم فيما يدور حولهم من أحداث وفي من يحكمونهم، وهي كلها أمور لا يجدها الباحثون في المصادر التاريخية التقليدية التي كتبت بقصد أن تكون تاريخاً ولا يمكن لباحث أن يزعم أنه فهم مجتمعًا في حقبة تاريخية ما، دون أن يكون عارفًا بآدابه وفنونه ومن بينها الرواية بطبيعة الحال، ولهذا عَدَّ الروائي الفرنسي بلزاك نفسه مؤرخ العصر، و إميل زولا هو مؤرخ للحياة الاجتماعية في القرن التاسع عشر، ونجيب محفوظ يؤرخ للقاهرة في الأربعينيات، وكذلك عبد الرحمن منيف في مدن الملح، ثم في أرض السواد يؤرخ للجزيرة العربية والعراق[٦]. وتأسيسا على ما سبق تُعد الرواية التاريخية سرداً لأحداث تاريخية مثبتة بقصد إعادة استيعابها وتجديد عرضها، والرواية التاريخية تعتمد مدة زمنية محددة تسلط الضوء عليها، فمن منطلق تاريخي ليس لمادة الرواية التاريخية بداية لا نهاية لأن التاريخ هو زمنها. وكتابة الرواية التاريخية هي تعبير عن مواقف و رؤى للعالم بشكل مختلف لا يمت بصلة إلى الكتابة بطريقة يفهمها القارئ مباشرة. والعودة إلى الماضي لا تنتج دائماً رواية تاريخية لأنها عودة مشروطة بمحددات ترسم ملامح هذا اللون السردي من الروايات. الأمر الذي دعا لوكاتش لكي يصف الرواية التاريخية بأنها تثير الحاضر ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق بالذات.[٧]

فإذا كانت الرواية أدباً اجتماعياً في المنظور اللوكاتشي، والتاريخ جزء من نشاط المجتمع البشري في مدة زمنية محددة. بل هو كنز دفين من الأسرار الخاصة والعامة المرتبطة به وتمثيله بطريقة أو بأخرى، فإن الرواية هي تعبير تمثيلي تخييلي عن الفضاء العام لهذا الكون الإنساني في أنموذجه الاجتماعي التاريخي.

فثمة علاقة ثلاثية المنشأ تستلهم أركانها من هذه الأعمدة الثلاثة المكونة للمثلث النصي في التشكيل الروائي المجتمع / التاريخ / الرواية. والرواية تتفاعل مع التاريخ، وتجسد أنموذجة المسخر لفعل الحكي الروائي بكل إيجابياته وسلبياته، وإن كان الروائي يركز على الجوانب السلبية في الأعم الأغلب بوصفها مادة صراعية تحيل في كشوفها على الجوانب الأخرى كافة. إن العلاقة بين الحدثين (التاريخي / الروائي) قائمة على أساليب مكشوفة تتبادل الإشارات، والعلامات فيما بينهما مناطق الوجود، والحفر في الباطن من جهة والروائي من جهة أخرى.[٨]

وحتى يوفق الكاتب في الجمع بين ثنائية (الحاضر والماضي) ويستطيع التعبير عنها في جنس أدبي (الرواية التاريخية) لا بد من أن يتعامل مع التاريخ بالنمط الذي قدمه لوكاتش ليستطيع التعبير عن الواقع وهموم الذات ونفخ روح العصر في زمن قد مضى وانتهى. من أهم أسباب عودة المبدع إلى التاريخ ما يأتي:

١- استحضاره للأجيال القادمة، قصد بناء مجتمع عربي قوامه الثقافة بإصلاح اعوجاجه وتقويم سلوكياته، ونقل صورة محترمة للعالم عن الحضارة العربية وعن مآثر العرب و أدوارهم المهمة في الماضي كل هذا يقدم صورة فنية جمالية.[٩]

٢- ومنها ما تتعرض له الأمم العربية من مشكلات اجتماعية وخصوصاً ما أصاب الأمة العربية من غزو استعماري استهدف هويتها هذا " ما يدفعها إلى فتح سجلات الماضي لإيجاد حل لمأزقها ورفع لمعنوياتها وعلى صعيد الرواية التاريخية العربية " فإن مكانة العرب المتواضعة، وهدرهم لإمكاناتهم في المآزق الطائفية و الإقليمية والقطرية وسواها، فماضي الإنسان جزء منه لا يمكنه أن يعيش بمعزل عنه، أو

يقرر فجأة الانفصال عنه لأنه يرتبط به ارتباطاً وثيقاً.[١٠] وحين وصل الخطاب الروائي بالتاريخ، تنتصب ثنائية التخييلي والواقعي بأسئلتها المفتوحة؛ إذ كيف يستقر واحدهما في الآخر؟... لقد كان التاريخ في مركز الخطاب الروائي، وظلت الرواية تعثر في التاريخ على المرجع والمرتكز ونقطة الانطلاق لزيارة الماضي مجدداً. واعتنت بمجالات المعرفة العديدة الموجودة في هوامش الكتابة التاريخية، وتحمّل أعبائها وآثارها.

المبحث الثاني: الرواية التاريخية بين التاريخ والفن الأدبي

يقوم خطاب الرواية على إظهار كل ما هو غير تاريخي بشكل مباشر، وعلى تطويره في التشخيص والمحاكاة، وتمنحها حريتها في التخييل والابتكار مجالا ممتداً للاهتمام بجميع التفاصيل التي يهملها التاريخ أحياناً، نشأ نمط من التنافس صار معروفاً ومتجاوزًا في الآن نفسه[١١]. وضمن السياق الراهن، أخذ الخطاب الروائي قَدَرَه على عاتقه؛ بل صار يأخذه مأخذ الجد؛ إنه يأخذ في الاعتبار الاتجاهات والتيارات الجديدة في التاريخ، ويفرض رؤيته الخاصة على ذاته وعلى التاريخ في الوقت نفسه، عبر اقتراح صيغ جديدة في قراءة الواقع ومقاربته وتمثله وفهمه وإنتاج معرفة به. وعلاوة على ذلك، يؤكد تميزه ويسترد استقلاليته في تشخيص الواقع والتاريخ. وقد أبانت الحيرة والمواربة اللتان ميزتا الإنتاجات الروائية الأولى عن مجادلات ومناظرات للجنس الروائي. وإذا كان التاريخ يدعي إنتاج خطاب حقيقي بصدد الماضي، فالخطاب الروائي يبتكر عالمه التخييلي الخاص دون مزاعم أو ادعاءات؛ بل إن تعريف الرواية التاريخية اكتنفه كثيرٌ من اللبس والغموض بسبب اصطفاف حقلين متمايزين ومتعارضين: التخييل والتاريخ[١٢].

إذا كان الروائي قادراً على التخيل، فسوف يمنحه القدرة على استحضار التاريخ ثم تجاوزه. شرط أن يطلع على المادة التاريخية ويستكشفها جيداً. والشخصيات التاريخية نوعان: شخصيات صرفة عاشت حقاً و أثبتها التاريخ على نحو معين، والثاني شخصيات تاريخية متخيلة يفترض

الروائي أنها كانت موجودة.

أما النوع الأول فيُرهق الروائي ويتعبه ليجعله يغوص عميقاً في أغوار التاريخ و أرشيف الشخصية، من أجل البحث عن سيرتها وكل ما يتعلق بها. أما الثاني فهو متعة الروائي، و إنقاذٌ له من التبعية التي تفرضها شخصيات النوع الأول[١٣].

إن رواية التخييل التاريخي تعطينا فرصة أن نذهب إلى أبعد من التاريخ والدليل على ذلك أن التاريخ يستولي على معظم الكتابات الأدبية في الوقت الحاضر وما يزال الغرب و أوربا يكتبون روايات عن الحرب العالمية الأولى والثانية، لأن التاريخ كان يتعامل مع الجماعات وليس مع الأفراد ولكن كل فرد من هؤلاء الأفراد له قصته، كما نرى ذلك في رواية (الحرب والسلام) كيف يستعيد التاريخ وكيف يستعيد بالتخييل التاريخي، يستدعي الخيال الأدبي والعوالم المحيطة في كل هذه الإشكاليات التي حصلت، و (رواية المنطقة الخضراء) للروائي شاكر نوري توثق الاحتلال الأمريكي للعراق وخاصة معالجة موضوع المترجمين الذين يتعاونون مع الاحتلال الأمريكي ويصبحون عبارة عن أدلاء على مواطنيهم وعلى رفاقهم وإخوانهم ويصبحون أداة بيد الاحتلال الأمريكي، وهكذا في رواياته الأخرى (حديث اليوم) و (مجانين بوكا) و (خاتون بغداد) و (الطاعون يا بغداد الطاعون) هذه الروايات الثلاث تربط بين تواريخ مهمة الطاعون تتحدث عن عام ١٨٣٠م بداية انتهاء تاريخ وبداية تاريخ جديد انتهاء عهد المماليك ونهوض عهد العثمانيين، و(خاتون بغداد) تتحدث عن عام ١٩١٧م وتحيل إلى نهاية العثمانيين وبداية حكم الإنجليز، و (مجانين بوكا) تتحدث عن عام ٢٠٠٣م وتحيل إلى دخول الأمريكان إلى العراق واحتلاله[١٤].

أما عن اللغة التي يوظفها الروائي في الرواية التاريخية فلا يفترض أن تبتعد عن اللغة المعاصرة حتى لو كانت تعالج حقبة زمنية ضاربة القدم. وهذا لن يؤثر على المصداقية الفنية التي يرجوها الروائي؛ لأنه كتب رواياته للجيل القادم وليس الجيل السابق، فمن البدهي أن تكون بلغة العصر[١٥].

وقد يتساءل القارئ عن سبب لجوء الروائي للتاريخ وعن العوامل التي تجعله يستحضره في الكتابة الروائية إلا أنه سرعان ما يدرك أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن التاريخ بسهولة كما نتصور، ومهمة الروائي لن تكون يسيرة ما دام يرحل نحو أسوار التاريخ، هذا الزمن المنتهي ليعبر عن الحاضر ذلك أن " تصوير التاريخ أمر مستحيل على المرء مالم يحدد صلته بالحاضر، إلا أن هذه العلاقة التاريخية في حالة وجود فن تاريخي عظيم حقاً، لا تكمن في الاستماع إلى الوقائع الراهنة، بل في جعلنا نعيش التاريخ محددًا باعتباره ما قبل التاريخ الحاضر، وفي إضفاء شعرية أو شرعية على القوى التاريخية و الاجتماعية و الإنسانية التي جعلت عبر مسار طويل حياتنا الراهنة على ما هي عليه".[١٦] وكانت العودة إلى التاريخ أحياناً محاولة للهروب من الواقع العربي المهزوم والضعيف سياسياً واجتماعياً وحضارياً، بسبب سيطرة الاحتلال الأجنبي على البلاد العربية في بداية القرن العشرين، وصعود الروح القومية والرغبة في الاستقلال، ثم الحكم الجبري الظالم، والهزائم العربية المتتالية بدءاً بضياع فلسطين عام ١٩٤٨م حتى هزيمة عام ١٩٦٧م، وفقدان الأفق والأمل في الغد... كل ذلك دعا إلى البحث عن حقب المجد والقوة والعظمة في التاريخ العربي الإسلامي؛ لإحيائها وبعثها من جديد، و للتعبير عن رفض هذا الواقع الأليم، والدعوة إلى الثورة والتغيير. لهذا فإن " الروائي قد يجد نفسه مضطراً إلى مخاطبة الحاضر بوساطة الماضي، وهنا يجد في التاريخ مجالاً رحباً للتعبير عن نفسه من طريق الرواية التاريخية "[١٧]. ويعرف سعيد يقطين الرواية التاريخية بأنها: "عمل سردي يرمي إلى إعادة بناء حقبة ما من الماضي بطريقة تخييلية حيث تتداخل شخصيات تاريخية مع شخصيات متخيلة، إننا في الرواية التاريخية نجد حضورًا للمادة التاريخية لكنها مقدمة بطريقة إبداعية تخييلية"[١٨]؛ فهي تعيد سرد أحداث مضت بالاستعانة بشخصيات تاريخية وشخصيات خيالية لإضفاء طابع التشويق وكسر رتابة التاريخ الذي يقدم على وفق قواعد الخطاب الروائي الذي يقوم على البعد

الخيالي مهما كان حقيقياً، وهذا التخييل هو الذي يجعل الرواية التاريخية مختلفة عن التاريخ حيث يصف يقطين قائلاً: " في الرواية التاريخية نجد حضورًا للمادة التاريخية لكن بطريقة تخييلية إبداعية فكل الذين حاولوا البحث فيها يلجؤون إلى المقارنة بين السرد التاريخي والرواية التاريخية، مميزين بينهما من جهة الحقيقة والخيال، فكلما كان السرد التاريخي ميالًا إلى الحقيقة وسرد الأحداث التي يمكن التحقق من واقعيتها أي مطابقتها للواقع كانت الهوية التاريخية ألصق بالتخييل والإبداع السردي"[١٩]؛ ويقصد بذلك أن الرواية تتناول التاريخ بطريقة تخييلية، ويمكن الفصل بين السرد التاريخي، والرواية التاريخية عبر عنصر الحقيقة التي يمكن التحقق من صحتها وواقعيتها، فإذا كانت الأحداث حقيقية موثقة كان سردًا تاريخيًا، وكلما مالت الأحداث إلى الخيال والتخييل دخلت في مجال الرواية التاريخية.

وخلاصة الأمر،" أن الرواية بنية زمنية متخيلة خاصة، داخل البنية الحديثة الواقعية، أو بتعبير آخر هي تاريخ متخيل داخل التاريخ الموضوعي. وقد يكون هذا التاريخ المتخيل تاريخاً جزئياً أو عاماً، ذاتياً أو مجتمعياً، فقد يكون تاريخاً لشخص أو لحدث أو لموقف أو لخبرة، أو لجماعة، أو للحظة تحول اجتماعي إلى غير ذلك. ورغم الاختلاف في الطبيعة البنيوية الزمنية بين المتخيل والموضوعي، فإن بين الزمنين أو التاريخين علاقة ضرورية، أكبر من تزامنهما، هي علاقة التفاعل بينهما"[٢٠] .

لا تنشأ بنية الرواية من فراغ، بل هي نتاج للبنية الاجتماعية والثقافية الواقعية السائدة على حد سواء.وهي ثمرة بلغة التخييل لا بلغة الاستنساخ والانعكاس المباشر. أي أنها تعبير إبداعي ينبع من الموقف والممارسة والخبرة الحية والثقافية في قلب هذه البنية الواقعية. لهذا السبب فهي إضافة متخيلة لهذا الواقع تعبر عنه وتتفاعل معه وتتجاوزه في الوقت نفسه. إنها تاريخه الوجداني، الرأسمالية ومن خبرتها الخاصة، هي في الوقت نفسه امتداد متطور للأساطير والملاحم والسير والحكايات الشعبية والقصص والمقامات التي تشكلت

أبنيتها التعبيرية الخاصة بحسب الأوضاع الاجتماعية السابقة على الرأسمالية التي نشأت في ظلها.[٢١]

وأخيراً، يجب التأكيد أن الرواية التاريخية ليست تاريخاً، ولا يمكن عدّها مصدراً تاريخياً للمعلومات التاريخية من قريب أو بعيد. بل هي لون أدبي و عمل فني يستمد الإلهام من التاريخ ويعتمد عليه، و التاريخ أحد ركائزه، وإذا اتفقنا على أن الرواية عمل أدبي له شروطه و أدواته وفنياته، يجب أن نعترف بأن للروائي الحق في اختلاق الأحداث والشخصيات والأماكن؛ لإعطاء عمله بعداً فنياً مقنعاً للقارئ، فالرواية التاريخية ليست تاريخاً، حتى لو كانت تستمد مادتها من التاريخ. لذلك، فهم مقتنعون بأن الانتقادات الموجهة إلى المهتمين بالرواية التاريخية لا معنى لها.[٢٢] والباحثان يتفقان مع هذا الرأي بأن الرواية التاريخية ليست هي التاريخ الحقيقي وإنما هي تخييل التاريخ بأسلوب فني جذاب يمثل قدرة الروائي في إعادة صياغة التراث بطريقة فنية توهم القراء بأن ما حدث فعلا وقع في التاريخ.

المبحث الثالث: تخييل التاريخ في رواية السابع عشر من رمضان

ولتوضيح ما سبق نأخذ رواية "السابع عشر من رمضان" للروائي جرجي زيدان ونبين بها كيف وظف الروائي التاريخ بأسلوب التخييل، وكيف تكون الرواية وسيلة انجذاب وتشويق للقراء لمطالعة التاريخ؟.

رواية " السابع عشر من رمضان " تتحدث عن ليلة قتل الإمام علي " عليه السلام "، وعن المؤامرة المحبكة بين الخوارج ضده، والنزاعات حول الخلافة، ضمنها الروائي قصة غرامية تجذب القراء.

نلاحظ عبر قراءة الرواية أن جرجي زيدان عرض المعلومات التاريخية بالشخصيات والأحداث والحوارات كل هذه الأشياء فيها رمز إلى التاريخ الإسلامي.

الشخصيات المتخيلة:

تعرف الشخصية المتخيلة، بأنها: "الشخصية التي لا تمتلك وجودًا موضوعيًا خارج النص، لكنها تقوم ببعض الوظائف التاريخية، وتعمل على

تسريع الوقائع (وقائع النص)، والتأثير فيها و تغيرها"[٢٣]، فالشخصية بهذا المعنى هي شخصية خيالية ابتدعها الكاتب للقيام بأعمال و أدوات تسهم في استمرارية السرد لضرورة الرواية، وبالتالي فإن وجودها ليس حقيقيًا، لكنه يعمل على إضفاء الصفة الواقعية التي ينسبها إليها،" فهي شخصيات غير مستقرة وغير ثابتة؛ بمعنى أنها متغيرة ونامية حسب المتطلبات السردية لتبقى في الإطار على وتيرة واحدة على طوال المسار السردي"[٢٤]، ولقد لجأ الروائي إلى هذا النوع من الشخصيات حتى يتمكن من شحنها بالعديد من الأفكار والتعبيرات التي تتجسد في شل الأحداث والحقائق التي تعكس مجرى الحياة والمشكلات التي تحتويها، هي مثل القناع الذي يستعمله الروائي لإيصال أفكاره ومشاعره للآخرين.

وقد شهدت الرواية العديد من الشخصيات المتخيلة، (الرئيسة و الثانوية) كالآتي:

الشخصيات الرئيسية:

سعيد الأموي:

سعيد بطل الرواية الخيالي، يمثل الشخصية الإيجابية، فهو أموي من جملة من نقموا على "علي" وقاموا بمطالبته بدم عثمان، ولكن لم يبق على موقفه إلى النهاية بل سرعان ما تغيير عند لقائه بجده أبي رحاب واكتشف حقيقة معاوية وبني أمية ومنازعتهم على الخلافة وبعدها أصبح من المدافعين عن الإمام علي (عليه السلام)، وقد وصفه الراوي في قوله: " كان سعيد شابًا أمويًا في حوالي الثلاثين من عمره"[٢٥]، وقال عنه في موضع آخر: "فخيل إليه أن قطامًا إذا رأت جماله و تحققت ما هو فيه من الوجد لا تلبث أن تقع في هواه"[٢٦]، وفي موضع آخر: "فيصلح عمامته ويمشط شاربيه ولحيته، وينفض جبته ويصلح وضعها"[٢٧]، نلاحظ أن الراوي لم يصف هذه الشخصية وصفًا دقيقًا بل اكتفى بذكر أنه كان شابًا جميلًا، أحب سعيدٌ قطامًا واشترطت عليه قتل الإمام علي مهرًا لزواجها واستكتبته بذلك صكًا وفي النهاية اكتشف نفاقها وكذبها كما في قوله تعالى: " وَ مِنَ الناسِ مَن يُعجِبُكَ قَولُهُ في

الحَيَاةِ الدنيَا وَ يُشهِدُ اللهَ عَلَى مَا في قَلبِهِ وَ هُوَ أَلَدُ الخِصَامِ"[٢٨]، وهذا القول ينطبق على قطام، فالشخص مهما كان جميل الشكل والمنظر ويغريك بكلامه ونفاقه فالله سبحانه مطلع على ما في القلوب من الغل والحقد وكاشفهم. فكان سعيد طيب القلب وقطام على عكسه لذلك انتهت قصتهم بالفشل، وبعدها التقى سعيد بخولة فأعجب بشجاعتها و إقدامها على الدفاع عن الإمام علي فأحبها وانتهت قصتهم بالزواج.

وكأن جرجي زيدان يحاول أن يوصل إلينا بهذه الشخصية أن الإنسان لن يصل إلى هدفه دون جهد وتعب وتذوق مرارة الفشل، وحاول بهذه الشخصية معالجة حادثة تاريخية إسلامية، وهي الصراع حول الخلافة والفتنة التي ظهرت في ذلك الوقت وقد صورها بوساطة أعمال البطل و أهدافه.

لبابة:

امرأة عجوز من مولدات الكوفة، مربية قطام منذُ نعومة أظفارها وهي تحن إليها حنينها إلى أمها.

وضح لنا الراوي وصفًا خارجيًا لهذه الشخصية فيقول: " دخلت العجوز تتوكأ على عكازها وقد احدودب ظهرها ونال منها الكبر فزادها قصرًا ولكنها ما زالت سريعة الحركة شديدة العصب، وكانت عمصاء العينين غائرة الفم لخلوه من الأسنان، مجعدة الخدين غائرتهما. فتقدمت قطام وقد غطت شعرها الشائب بنقاب أسود تجره وراءها لطوله وقصرها"[٢٩]، ونرى أن مرور الزمن قد ترك أثره عليها بوساطة التجاعيد وسقوط أسنانها وضعف عظامها، فقد حدد الروائي أهم أوصافها الداخلية وهو النفاق والدهاء والمكر معتمدًا على إظهار أسلوبها وحوارها مع قطام فهي خبيرة في النفاق والمكر فيقول الروائي: " قالت: " هوني عليك يا قطام واستريحي، فقد جئتك بالفرج بإذن الله " قالت: " من أين يأتيني الفرج ولا يفرج كربتي إلّا الانتقام "... قالت العجوز: " ما قولك أني وجدت لك من يأخذ لك بثأرك؟" قالت: " من هو؟ قولي " قالت: "اصبري ولا تكوني لجوجة. أتعرفين سعيدًا؟"... قالت: " إذا كان لا بد من الانتقام فيجب أن تحبي سعيدًا " قالت:" كيف أحبه

وليس في قلبي موضع لغير البغض والحقد. إني حاقدة ناقمة " قالت: " أنا أعلم ذلك، ولكن أحبي سعيدا ولو إلى حين وهو ينتقم لك"[٣٠]، بهذه الرصدات التي اقتطعناها من النص حول بناء شخصيتها الداخلية، يتبين لنا أن هذه الشخصية تتميز بالخبث والخداع، فهي شخصية ذات نوايا خبيثة. وهي شريكة قطام في المكر و خداع الآخرين، فهي المدبر الرئيس لكل خطط قطام، وهي و من جمعت قطام بابن ملجم، وكانت نهايتها القتل على يد قطام وابن ملجم، وهكذا تكون نهاية الشر الاندثار.

وقد وظف الراوي هذه الشخصية لتمثل المنافقين في زمن الفتنة الكبرى.

الشخصيات الثانوية:

رفقاء سعيد(عبد الله، خولة، بلال):

وهم رفقاء سعيد يعملون من أجل إنقاذ الإمام علي من المؤامرة المحبكة ضده، ولم ترد لهم مواصفات واضحة في الرواية، وإنما أشار الكاتب إلى بعض المواصفات فقال عن خولة: "شابة في متقبل العمر جميلة الطلعة وقد أحمرت عيناها وذبلت أهدابها من البكاء، فلم يزدها ذلك إلّا حسنا، وكانت قد ضفرت شعرها في أثناء الطريق وغطت رأسها بطرف ثوبها"[٣١]، وغطاء الرأس بالثوب دلالة على المرأة العربية المسلمة المحتشمة، ولم يرد وصف لعبد الله إلا في موضع واحد وهو عندما كانت تنظر إليه خولة " فرأته معتدل القوام رشيق الحركة فارتاحت لرؤيته وسرت به لمشابهته سعيدا"، والعبد بلال لم يرد له وصفٌ في الرواية، ونحن نعلم أن العبيد معروف عنهم في ذلك الوقت قوة البدن والبشرة السمراء.

أما وصفهم الداخلي فهم أشخاص يدافعون عن الخير، والناس الطيبين، وأوفياء لأسيادهم، لا يحبون النفاق والكذب، وتظهر صفة المحبة والأخوة والاحترام بينهم كما في هذا المقطع السردي "فبهت بلال وغلب عليه البكاء من الفرح وصاح: "أنت حي يا مولاي؟ من لي بمن يحمل هذه البشرى لابن عمك؟. والله إني حاملها إليه الساعة"[٣٢]، كما تظهر عليهم ملامح القلق والخوف والحيرة على وجوههم،

وهذا بسبب المؤامرة ضد الإمام علي، وفي موضع آخر من الرواية نرى صفات الشجاعة وعدم اليأس وتحدي الصعاب في تحقيق رغبتهم كما في الرواية " فقال لها: " اعلمي يا قطام أني قاتلك انتقامًا للإمام علي ". قال ذلك وأغز خنجره في عنقها فاحتز رأسها وترك الجثة ولها شخير رن في أذنيه إلى مسافة بعيدة"(٣٣) .

وقد وظف الراوي هذه الشخصيات لتمثل أصحاب الإمام علي (عليه السلام)وأنصاره ومواقفهم و حالهم من أجل الدفاع عن الإمام علي.

ريحان:

عبد كهل رُبّيَ في أهل قطام منذُ صباه، وقد هجرها بعد أن بليت بمصيبتها جميع الخدم والأعوان ما عداه. وكانت ترتاح إلى بث شكواها له، وكان يخفف عنها ويعدها بنيل المرام.

وقد وصفه الراوي، في قوله: "كان ريحان طويل القامة، شديد السواد، خفيف العضل، سريع الحركة، جاحظ العينين، أفطس الأنف، عظيم الوجنتين، بارز الأسنان يزيدها بروزًا تدلي شفته السفلى وانحسار شفته العليا"(٣٤)،

وهنا نلاحظ أنه كان أسمر، وهذا ما هو معروف عن العبيد في ذلك الوقت العصر الإسلامي- أما وصفه النفسي، فهو شخصية من دون مبادئ، يرى الشر أمامه ولا يحرك ساكنًا، ولما كانت سيدته في كامل سلطتها خدمها وفيًا وعند قتلها ذهب واستولى على أموالها.

وهكذا فقد جمعت هذه الرواية بين نمطين من الشخصيات هما (الواقعية التاريخية) والشخصيات (المتخيلة المصنوعة من الورق) وقد وظّف جرجي زيدان النمطين كليهما في روايته على نوع من الصوغ الروائي الذي يمتزج فيه التاريخ بالخيال من أجل شدّ قارئه إلى التاريخ المستعاد ومن أجل أخذ العبر من الحاضر الذي يستعيد ذلك التاريخ بشكل فني تخييلي.

ومما تقدم من الأحداث السابقة في الرواية نلاحظ أنه لا يمكن إخفاء ملامح التاريخ داخل النص الروائي، لأنه يترك أثره داخل النص ويُعرف بمظاهره. وعندما استحضر الروائي التاريخ، كانت النصوص مدعومة بالأدلة والاستشهادات التي تعزز موقفه من

التاريخ، إما لتمويه القارئ وإما لتوثيق مصدر نصه. جاءت رواية (السابع عشر من رمضان) غنية بالاقتباسات التي تعيد كتابة التاريخ، وتعلن وجوده في ثنايا الرواية، دون الإشارة إلى أنه نص تاريخي بوضعه بين علامتي اقتباس أو تغيير خطه، وفي أحيان أخرى اعتمد نمط الاقتراض، مثل إدخال مقاطع أو جمل تاريخية غير سردية مباشرة بين ثنايا النص الروائي على أساس أنها جمل أصلية تنتمي إلى السرد، في حين إنها ليست أصلية. فهي نصوص مستعارة يتبناها الروائي فقط لتتبع مسار السرد الروائي التاريخي.

نتائج البحث:

١- الرواية لا تعد وثيقة من وثائق التاريخ، لأنها لا تنقل التاريخ بصورته الحرفية،بل من طريق تخييل الأحداث والشخصيات.

٢- احتلت الرواية التاريخية طليعة الكتابات الروائية في الأدبين الغربي والعربي بسبب طبيعة العلاقة الوثقى بين الأدب والتاريخ.

٣- علاقة الرواية بالتاريخ علاقة متبادلة، حيث تفيد الرواية من المعلومات التاريخية، والتاريخ يُفيد منها بتصوير العادات والتقاليد للمجتمع، وذكر الأحداث التي لا يشير إليها التاريخ.

٤- كتابة الرواية التاريخية هي تعبير عن مواقف و رؤى للعالم بشكل مختلف لا يمت بصلة إلى الكتابة بطريقة يفهمها القارئ مباشرة.

٥- الشخصيات التاريخية في الرواية نوعان: شخصيات لها وجود حقيقي في الواقع، وشخصيات متخيلة يبتدعها الروائي.

٦- رواية " السابع عشر من رمضان "تتحدث عن حقبة تاريخية محددة وبالأخص ليلة اغتيال الإمام علي " عليه السلام".

الهوامش:

١- الرواية والتاريخ و إشكالية التداخل: بوجمعة: أبو حفص، مجلة إشكالات في اللغة و الأدب، مجلد ١٠، عدد ٢، ٢٠٢١: ٥٠٦.

٢- علاقة الرواية الأدبية بالتاريخ: د. الحاج صادوق، جسور المعرفة، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، المجلد ٥، العدد ١، ٢٠١٩: ٢٠٤.

٣- في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد: د. عبد الملك مرتاض، عالم المعرفة، ديسمبر ١٩٩٨: ١٥.

٤- الرواية العربية بين الواقع والتخييل: رفيق صيداوي، دار الفارابي، لبنان، ط١، ٢٠٠٨م: ٩٣- ٩٥.

٥- تقول الرواية ما يحجبه التاريخ: كارلوس فونتيس، مجلة الكرمل فصلية ثقافية، العدد ١٨، ١٩٨٥: ١١٣.

٦- التاريخ والرواية تفاضل أم تكامل: قاسم عبده قاسم، مجلة العربي، العدد ٥٥٧، المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب.

٧- ينظر،التخييل التاريخي في الرواية المغاربية الجزائر، المغرب، تونس: شامخة طعام، بحث لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي المعاصر، جامعة وهران، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربية و آدابها: ٣٢.

٨- جماليات التشكيل الروائي: محمد صابر عبيد، سوسن البياتي، سوريا، دار الحوار للطباعة والنشر: ١٢، ٢٢.

٩- ينظر: الرواية التاريخية: سيار الجميل، مجلة البيان، جامعة آل البيت، م٢، ١٩٩٩م، ٣٠- ٣١.

١٠- الرواية التاريخية: نضال الشمالي: ١٣٦.

١١- المؤتمر الدولي الخطاب الروائي والتاريخ ٢٠١٨، ١٢، ٥ إلى ٢٠١٨، ١٢، ٧، الموقع مراكش، المغرب..https: / /www.diae /events /events ٦٢٧٩٧.

١٢- المؤتمر الدولي الخطاب الروائي والتاريخ.

١٣- ينظر،التخييل التاريخي في الرواية المغاربية: شامخة طعام: ٣٣.

١٤- الرواية والتاريخ: الروائي العراقي شاكر نوري.

١٥- الرواية والتاريخ: نضال الشمالي: ٤٤.

١٦- الرواية التاريخية: جورج لوكاتش، ترجمة: د. صالح جواد كاظم، دار الشؤون الثقافية العامة، ط٢، ١٩٨٦: ١١٤.

١٧- الرواية التاريخية العربية زمن الازدهار: قاسم عبده قاسم، المستقبل، الثلاثاء ٢٧ تموز، العدد ٣٧٢٣، ثقافة وفنون: ٢٠.

١٨- قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجود والحدود، سعيد يقطين، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٠،ط١: ٢٢٦، ٢٢٧.

١٩- المصدر نفسه: ٢٢٧.

٢٠- الرواية بين زمنيتها وزمنها مقاربة مبدئية عامة: محمود أمين العالم، مجلة فصول، القاهرة، العدد ١، المجلد الثاني عشر، ١ يناير ١٩٩٣م:١٣.

٢١- الرواية بين زمنيتها وزمنها مقاربة مبدئية عامة: محمود أمين العالم: ١٣.

٢٢- بين الأدب والتاريخ... محاولة لفك الاشتباك، منير إبراهيم تايه، الحوار المتمدن، الأدب والفن، ٢٠١٧\٥\٢٤، https: / /m. .ahewar.org

٢٣- التوظيف الفني للتاريخ في رواية " فتح الأندلس "لـ: جرجي زيدان: سناء شويب:٦٢.

٢٤- التوظيف الفني للتاريخ في رواية " فتح الأندلس " لـ: جرجي زيدان: سناء شويب: ٦٢.

٢٥- رواية ١٧ رمضان: جرجي زيدان:١٢.

٢٦- المصدر نفسه: ١٣.

٢٧- المصدر نفسه: ١٣.

٢٨- سورة البقرة: ٢٠٤.

٢٩- رواية ١٧ رمضان: جرجي زيدان: ٩.

٣٠- رواية ١٧ رمضان: جرجي زيدان: ٩، ١٠.

٣١- المصدر نفسه: ٦١، ٦٢.

٣٢- رواية ١٧ رمضان: جرجي زيدان: ١٢٣.

٣٣- المصدر نفسه: ١٤٤.

٣٤- المصدر نفسه:

المصادر والمراجع:

١. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام: الشيخ محمد باقر المجلسي، تنقيح، العلامة الشيخ علي النمازي الشاهرودي، منشورات، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.

٢. بين الأدب والتاريخ... محاولة لفك الاشتباك، منير إبراهيم تايه، الحوار المتمدن، ٢٤ / ٥ / ٢٠١٧.

٣. التاريخ والرواية تفاضل أم تكامل: قاسم عبده، مجلة العربي، العدد ٥٥٧، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

٤. التخييل التاريخي في الرواية المغاربية الجزائر، المغرب، تونس: شامخة طعام، بحث لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي المعاصر، جامعة وهران، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها.

٥. تقول الرواية ما يحجبه التاريخ: كارلوس فونتيس، مجلة الكرمل فصلية ثقافية، العدد ١٨، ١٩٨٥ م.

٦. جماليات التشكيل الروائي: محمد صابر عبيد، سوسن البياتي، سوريا، دار الحوار للطباعة والنشر.

٧. الرواية التاريخية: جورج لوكاتش، ترجمة: د. صالح جواد كاظم، دار الشؤون الثقافية العامة، ط٢، ١٩٨٦.

٨. الرواية التاريخية: سيار الجميل، مجلة البيان، جامعة آل البيت، م٢، ١٩٩٩ م.

٩. الرواية التاريخية العربية زمن الازدهار: قاسم عبده قاسم، المستقبل، الثلاثاء ٢٧ تموز، العدد ٣٧٢٣، ثقافة وفنون.

١٠. رواية السابع عشر من رمضان: جرجي زيدان، المكتبة الأدبية، بيروت، ١٨٩٩ م.

١١. الرواية العربية بين الواقع والتخييل: رفيق صيداوي، دار الفارابي، لبنان، ط١، ٢٠٠٨ م.

١٢. الرواية بين زمنيتها وزمنها مقاربة مبدئية عامة: محمود أمين العالم، مجلة فصول، القاهرة، العدد ١، يناير ١٩٩٣ م.

١٣. الرواية والتاريخ: الروائي العراقي شاكر نوري، يوتيوب، قناة طب وعلوم، يوم الجمعة ١٦ أيلول / سبتمبر ٢٠٢٢، https://youtu.be/KdRfzk٥NLN٥.

١٤. الرواية والتاريخ وإشكالية التداخل: بوجمعة بو حفص، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مجلد ١٠، عدد ٢، ٢٠٢١.

١٥. علاقة الرواية الأدبية بالتاريخ: د. الحاج صادوق، جسور المعرفة، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، المجلد ٥، العدد ١.

١٦. في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد: د. عبد الملك مرتاض، عالم المعرفة، ديسمبر ١٩٩٨.

١٧. قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجود والحدود، سعيد يقطين، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١٠ م.

١٨. مقتل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا ت ٢٠٨، ٢٨١، تحقيق، الشيخ محمد باقر المحمودي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ط١، ١٤١١، ١٩٩٠ م.

١٩. المؤتمر الدولي الخطاب الروائي والتاريخ: ٥ - ١٢، ٢٠١٨ الموقع مراكش المغرب، https://www.diae.events/events/٦٢٧٩٧.